

تفسير سورة الجاثية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَّ ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَأَخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ ءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

يُرشد تعالى خلقه إلى التضرع في آياته ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبها دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياته، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماء رزقا، لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ أي: جنوبا وشمالا، ودبوراً وصباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم لا يتبع. وقال أولاً: ﴿لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾ وهو ترقُّق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١﴾ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَادِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ لِّعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٤﴾ يَنْ وَرَأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْقِبُ عَنْهُمْ مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٥﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِءَايَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبيانات ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا يتقادون لها، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ثم قال: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: أفاك في قوله كذاب، حلاف مهين أئيم في فعله وقيله كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَادِي عَلَيْهِ﴾ أي: تقرا عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها، ﴿فَبَشِيرَةٌ لِّعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي: فاجبره أن له عند الله

يوم القيامة عذابا اليما موجعا. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أى: إذا حفظ شيئا من القرآن كفر به واتخذله سخريا وهزوا، ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أى: فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزا به؛ ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو^(١).

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أى: لا تنفعهم أموالهم ولا اولادهم، ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: ولا تغنى عنهم الآلهة التي عبدها من دون الله شيئا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعنى القرآن، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ﴾ وهو المؤلم الموجه.

ربع

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِنَجْرِ الْفُلْكَ فِيهِ يَأْتِرُونَ وَلِيَسْتَفْعُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِنَجْرِ الْفُلْكَ﴾ وهى السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذى أمر البحر بحملها، ﴿وَلِيَسْتَفْعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى: فى المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: على حصول المنافع المطلوبة إليكم من الأقاليم النائية والأفاق القاصية. ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تستفون به، أى: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾ أى: من عنده وحده لا شريك له فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ لِيَأْتِيَنَّكُمْ تُجَارُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى: يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم. وهذا كان فى ابتداء الإسلام، أمروا أن يصيروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجهاد والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهد: ﴿لَا يُرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون نعم الله. وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: إذا صفحوا عنهم فى الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة فى الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أى: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزىكم بأعمالكم خيرا وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْعِزَّةَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ يَنْهَهُنَّ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُعْتَرُوا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٨﴾

يذكر تعالى ما انعم به على بنى اسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّورَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المآكل والمشرب، ﴿وَرَفَعْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى: فى زمانهم، ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أى: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحججة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أى: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. إنهم لَنْ يُعْتَرُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى: وماذا تغنى عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكًا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال: ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْفُوتُهُمْ وَمَعَاتِمُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ عِشْوَةَ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى: لا يستوى المؤمنون والكافرون، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى: عملوها وكسبوها ﴿أَنْ نُجْعِلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَعَاتِمًا وَمَعَاتِمُهُمْ﴾ أى: نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة ا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة، وفى هذه الدار؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالعدل، ﴿وَلِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: إنما ياتر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه، وعن مالك: لا يهوى شيئا إلا عبده.

وقوله: ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾، يحتمل قولين: أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحججة عليه. والثانى يستلزم الأول، ولا يتعكس. ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ عِشْوَةَ﴾ أى: فلا يسمع ما يضعه، ولا يبصر شيئا يهتدى به، ولا يرى حجة يستضىء بها؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقولهم: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الاعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا مِنْ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ

هُمْ إِلَّا يَتُوبُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّبُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أى: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، أى: يتوهمون ويتخيلون. فاما الحديث الذى أخرجه صاحبنا الصحيح، وأبو داود، والنسائى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذنى ابن آدم؟ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الامر، أقلب ليله ونهاره». وفى رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر» (١). قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قولهم ﷺ: «لا تسبوا الدهر؟ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر. فيستندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله عز وجل، فكانهم إما سبوا، الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة، فلهدأ نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذى يعنونه، ويستندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذوا من هذا الحديث.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقتها، ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّبُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا. قال الله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْرَأَاتٍ فَاحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] أى: الذى قدر على البدأة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى. ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ ﴾ أى: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا: ﴿ اتُّبُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ [التغابن: ٩] ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المرسلات: ١٢، ١٣]، ﴿ وَمَا نُزِجْنَاهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴾ [هود: ١٠٤] وقال هاهنا: ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ ﴾ أى: لا شك فيه، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: فلهدأ ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَتَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٦، ٧] أى: يرون وقوعه بعيدا، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ بِحَسْرٍ الْمَبْطُلُونَ ﴾ ﴿ وَرَبِّى كُلِّ أُمَّةٍ جَائِئَةٌ كُلُّهُ ﴾

أَتَوْا تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطَلِّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى: يوم القيامة ﴿يُخَسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات اللينات والدلائل الواضحات. وقال ابن أبى حاتم: قدم سفيان الثوري المدينة، فسمع الغاضرى يتكلم ببعض ما يضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف فى الغاضرى حتى لحق بالله، عز وجل.

ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ أى: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جرى بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسى، نفسى، نفسى، لا أسالك اليوم إلا نفسى، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسالك اليوم إلا نفسى، لا أسالك مريم التى ولدتنى. قال مجاهد، وكعب الاحبار، والحسن البصرى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ﴾ أى: على الركب. وقال عكرمة: ﴿جَائِيَةٌ﴾ متميزة على ناحيتها، وليس على الركب. والاول أولى.

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ يعنى: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجِيءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهُدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: تمآرون بأعمالكم خيرا وشرا، كقوله تعالى: ﴿يَهَيِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بل الإنسان على نفسه بصيرة. وتوآلقى معاذيرة ﴿القيامة: ١٣ - ١٥﴾.

ثم قال: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطَلِّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أى: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ قَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْخِغُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: إننا كنا نأمر الحفظه أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر، مما كتبه الله فى القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْخِغُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَبْتِنِينَ ﴿٣١﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا عَمِلُوا وسَاقَ يَوْمَ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٢﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ تَصْرِيفٍ ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُرُورًا وَعَرْتُكُمُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا فَآلَتِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٤﴾ فَلِلَّهِ الْمُلْكُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٦﴾

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى:

آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهى الخالصة الموافقة للشرع ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وهى الجنة، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: «أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء» (١).

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أى: البين الواضح.

ثم قال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريبا وتوبيخا: أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم سماعها، ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ فى أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب ؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى: إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ قُتِبْتُمْ مَا نَدْرَىٰ مَا السَّاعَةُ ﴾ أى: لا نعرفها، ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أى: إن توهم وقوعها إلا توهما، أى مرجوحا ؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ ﴾ أى: بمحققين، قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ سِنَيَاتٍ مَا عَلِمُوا ﴾ أى: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى: احاط بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى: من العذاب والنكال، ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ ﴾ أى: نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أى: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿ وَمَا وَآوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾. وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «الم أزوجك؟ الم أكرمك؟ الم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وترعى؟ فيقول: بلى، يارب. فيقول: أفتظنت أنك ملائ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فالיום أنساك كما نسيتي» (٢).

قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُم اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ أى: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى: خدعتكم فاطمأنتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ﴾ أى: من النار ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى: لا يطلب منهم العتبي، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال: ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ ﴾ أى: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. ثم قال: ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد: يعنى السلطان. أى: هو العظيم الممجّد، الذى كل شىء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد فى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما أسكتته نارى». رواه مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد بنحوه (٣). وقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى: الذى لا يغالَب ولا يمانع، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو.

(٢) مسلم (١٦/٢٩٦٨).

(١) البخارى (٤٨٥٠).

(٣) مسلم (١٣٦/٢٦٢٠).